جامعة مولود معمري–تيزي وزو

مخبر الممارسات اللغوية



مجلة

الممارسات اللغوية

العدد التاسع (09)

2012

القيمة اللغوية للمجاز في التصحيح والتوليد اللغوي

د.مختار درقاوي

جامعة الشلف

ينبني اللسان العربي على علاقات سياقية تتشكّل بين الكلم في محاولة للارتقاء والتنويع في أساليب اللغة وبيان جماليتها .وتدفع بعض هذه العلاقات - وأخص بالذكر في هذا المقام المجاز- أهل اللغة إلى توليد معان جديدة وتغيير دلالات عدد من الكلمات بما يتوافق ولغة ذلك المصر والعصر. وطبيعي أن يستند المتكلّم العربي في زماننا إلى هذا المبدأ الرحب ولا يتّكئ ويكتفي في استعمال لفظة لدلالتها على رواية واحد من الثقات كالخليل، أو الأصمعي، أو ابن الأعرابي.

فكثير من ألفاظ اللغة العربية "معمّرة حية تتصف بالنضارة والإشراق اللذين كانت عليهما قبلا، ولكن المرء إذا ما نظر من زاوية أخرى إلى كثير من ألفاظ العربية فإنّ الصورة المتشكّلة لديه هي أنّ لسير العربية عبر الزمان والمكان دورا جليا في وقوع تراخ بين اللفظ ودلالته إلى حدّ الإيهام أحيانا أو في نقل معنى من مجال لآخر، أو في تعدد صور المعنى وتعدد استعمالاته، وهذا الذي تقدم لم يقع في عهد الأصمعي أو ابن الأعرابي"[1]، ولعلّ هذا ما جعل عبد السلام المسدي يعتبر المجاز أداة اللغة لإنجاز التحوّل الدلالي، يتحرّك الدال فينـزاح عن مدلوله ليلابس مدلولا قائما أو مستحدثا، وهكذا يصبح المجاز جسر العبور تمتطيه الدّوال بين الحقول المفهومية"[2].

ويطالعنا الموقف العربي أنّ عددا من القدماء –فضلا عن المحدثين- قد ارتضوا هذه الظاهرة قائلين بها مستشرفين ناموسها، فلم التضييق على

العامة؟، ومما ورد في مظان التراث العربي من دعوات ومواقف - نستحضر- الآتي:

- أنكر جمع أن يقال للقائم إذا قعد: جلس، وأجازه البغدادي، حيث حمله على المجاز مرادا به التعظيم.[3]

- حين تسلك العامة طرق المجاز، وتقول مات الميّتُ، يُلحّنهم أبو حاتم السِّجستاني- تأثرا بشيخه الأصمعي- لأنّه لم يردْ؛ ولأنّه لا معنى له في نظره فالصواب أن يقال: مات الحيُّ. في حين البَطَليوسي استدرك على أبي حاتم وصحّح الاستعمال بحمله على المجاز، الذي ورد نظيره عن العرب[4]، وقد ذكر يوهان فِك تعقيبا على من اقتفى طريقة الأصمعي أنّ البطليوسي "أنحى بشدّة اللائمة على ابن قتيبة؛ لأنّه احتضن مذهب الأصمعي المتطرّف في تنقية اللغة دون أن يعنى بمذاهب الثقات الآخرين من علماء اللغة ولو على سبيل العرض فحسب"[5].

- ولابن دريد في جمهرته التفاتة بديعة تشير إلى إيمانه بهذا المبدأ الرحب، فقد عقد بابا سماه "الاستعارات" تحدث فيه عن انتقال دلالات الألفاظ ومن ذلك حديثه عن أصل معنى المجد قد كانت تدل هذه الكلمة على امتلاء بطن الدابة من العلف، ثمّ قيل بعد ذلك: "مجد فلان إذا امتلأ بالكرم"[6].

- وأشار ابن فارس إلى هذا الأمر بقوله: "وقد كان لذلك كله ناس يعرفونه.وكذلك يعلمون معنى ما نستغربه اليوم نحن من قولنا: "عُبْسُور" في الناقة، و"عَيْسَجور" و"امرأة ضِنانِي" و"فرس أشَقٌّ أمقٌّ، خِبَقٌّ" ذهب هذا كله بذهاب أهله ولم يبق عندنا إلّا الرسم الذي نراه"[7].

وسار أحمد مختار عمر- من المحدثين- على هذا الطريق، وأكّد فاعلية المجاز في التصحيح في عدّة مواضع من "معجمه الصواب اللغوي" يقول: "**الاستخدام المجازي** (..) باب واسع في العربية لا حَجْر عليه"[8] "ويمكن تخريج المثال المرفوض على **المجاز المرسل** الذي علاقته السببية"[9]، "تصحيح المثال

(...) على أنّه **المجاز العقلي**"[10]، "يمكن تصحيح الاستعمال المرفوض على أنّ الكلمة من **المؤنّث المجازي**"[11] ولعلّ الأمر يتضح من خلال النماذج الآتية:

- عبارة "أجهش بالبكاء" مرفوضة عند بعضهم؛ لأنّ كلمة أجهش لم ترد في المعاجم بهذا المعنى والأفصح أن يُقال: علا صوته بالبكاء، بيد أنّ العبارة المرفوضة صُححت على أساس أنّ "أجهش" في المعاجم بمعنى همّ بالبكاء وتهيّأ له، فيمكن تخريج المثال المرفوض على المجاز المرسل الذي علاقته السببية لأنّ التهيّؤ يستلزم الفعل عادة[12].

- عبارة "أذَّن العصرُ" رفضها بعضهم؛ لاستعمال المبني للمعلوم بدلا من المبني للمجهول، فالأفصح أن يُقال: "أُذّن بالعصر" أو "أذّن المؤذن بالعصر"؛ لأنّ الفعل "أذّن" يتعدّى بالباء ليفيد معنى الإعلام بدخول وقت الصلاة وتمّ تصحيح المثال المرفوض على أنّه من المجاز العقلي[13].

- ومن باب المؤنّث المجازي كلمة أُذُن في عبارة: "أصيب في أذُنه الأيمن" رفضها الأكثرية لمعاملة كلمة "أُذن" معاملة المذكّر وهي مؤنّثة، فالأفصح قولنا: "أصيب في أذنه اليمنى"، هذا ما تمّ ذكره في "المصباح" و"اللسان" و"التاج" وذهب أحمد مختار إلى تصحيح الاستعمال المرفوض، الذي عوملت فيه الكلمة معاملة المذكّر اعتمادا على أنّ الكلمة من المؤنّث المجازي الخالي من علامة التأنيث، وهو نوع من المؤنّث ذهب كثير من القدماء إلى جواز تذكيره، مثل المبرّد وابن السّكّيت، والأزهري، وقد حكي عن المبرّد أنّه كان يقول: "ما لم يكن فيه علامة تأنيث وكان غير حقيقي التأنيث فلك تذكيره"[14]، والعرب تجترئ على تذكير المؤنّث إذا لم يكن فيه علامة تأنيث.

وبقدر ما أنّ المجاز سبيل مسعف في التصحيح والتواصل فقد يكون سببا للالتباس والغموض في كثير من المواقف الكلامية كأن يوظّف المتكلّم أثناء التواصل مع الآخرين ألفاظا بائدة غير مأنوسة أو أن يتشبّث السامع أو المتكلّم بطور من أطوار تطوّر الكلمة دلاليا دون آخر، فيقع تفاصل مرده إلى تمسك

الأوّل بدلالة اللفظ في طور معيّن وتمسّك الثاني بدلالة أخرى في طور دلالي آخر في الحدث الكلامي نفسه، أو أن يفهم المتأخّر ألفاظ المتقدّم كما يفهمها في مجتمعه وزمانه[15]، ظنا منه أنّ تلك الألفاظ في بيئتها الأولى كانت تعني عند أصحابها ما تعنيه عند أهل زمانه دون مراعاة للتطور والتغيّر.

وفي هذا الصدد يقول إبراهيم أنيس: "وكان لهذا أستاذ الأدب الإنجليزي يحذّرنا من تلك الألفاظ التي نظنّ أنّنا نفهم معناها، ويقول لطلابه إنني لا أخشى عليكم في أدب شكسبير من تلك الألفاظ الغريبة التي لم تصادفوها في نصوص أخرى، أو لم تسمعوا بها من قبل، ولكني أخشى عليكم من تلك الألفاظ التي لا تزال تشيع بصورتها القديمة في الأدب الإنجليزي الحديث، والتي يخطر في أذهانكم لأوّل وهلة أنّ دلالتها واضحة مألوفة لكم جميعا، فهي محل الزلل والخطأ؛ لأنّ كثيرا منها قد تطورت دلالته، وتغيرت مع الزمن. أما الأولى فأمرها هيّن لا تكلفكم سوى البحث عنها في مظانها والوقوف على معناها"[16].

ومثل هذا كثير في العربية، ويمكن أن نضرب على ذلك بمثالين، الأوّل قول بعضهم: "تنفّس الصعداء" معناه عند فقهاء العربية تنفَّس تنفُّس الإنسان في الصعود؛ أي لقي شدّة وعسرا، والصعداء مصدر بمعنى الصعود وعامة الناس اليوم يستعملونها بعكس هذا المعنى يريدون الراحة واليسر، والثاني كلمة "الشنب"، التي كانت تعني في القديم جمال الثغر وصفاء الأسنان، وهي في الاستعمال الحديث بمعنى الشارب[17].

وعند التحوّل إلى العلوم اللغوية الحديثة كعلم الدلالة مثلا **La sémantique** نجد اهتماما بالغا بالتغيّر أو التطوّر الدلالي، بل إنّه يعدّ محورا رئيسا من محاوره، حيث تركّزت جهود الباحثين فيه ضمن ما دعي بعلم الدلالة التاريخي **sémasiologie**[18]، الذي يبحث التغيرات المختلفة التي تصيب الكلمات، يقول بيير جيرو **Pierre Guiraud**: "لقد رأينا أن كلّ كلمة عبارة عن مجموعة من المشتركات ويكفي لواحدة منها أن تتطور لكي تغطي

على المعنى وتهدمه، إنّها تكتمه أوّلا ثمّ تقوم بتعويضه"[19]، وألمح فندريس **Vendryes** إلى أنّ "الكلمات لا تطرد القديمة دائما"[20]، وإنّما هناك توسيع أو تضييق أو نقل للمعنى ويظهر التغيّر الدلالي عند ستيفن أولمان **S. Ullmann** في صورتين اثنتين: "فقد يضاف مدلول جديد إلى كلمة قديمة أو كلمة جديدة إلى مدلول قديم"[21].

وعقد فريد عوض حيدر في كتابه علم الدلالة مبحثا أسماه "المجاز والتوليد"[22]، تحدّث فيه عن العلاقة التي تجمع بينهما، وأكّد أنّ المجاز الذي يسهم في نمو اللغة هو المجاز المرسل، سواء أكان قائما على علاقة المشابهة أم على علاقة غيرها كالسببية، وهذا الجانب من المجاز هو أكثر الجوانب الواقعة في دائرة اهتمام اللغوي عندما يدرس التغير والتطوّر الدلالي .ويرتبط المجاز عند أهل اللغة بقسم فقط من أقسام التوليد هو "التوليد المعنوي"،الذي أشار إليه فندريس بقوله: "ترجع أحيانا التغيرات المختلفة التي تصيب الكلمات من حيث المعنى إلى ثلاثة أنواع:التضييق، والاتساع، والانتقال"[23]، أما القسم الثاني: "التوليد اللفظي" فمرتبط بالاشتقاق والنحت، والتركيب.

ولعل في تقرير أحمد مختار –الآتي- كفاية واختصارا للكلام: "وواهم كلّ الوهم من يظن أن فصحانا اليوم سواء في مفرداتها أو تراكيبها أو نظام جملها صورة طبق الأصل من فصحى الجاهليين أو غيرهم فالفصحى تتطور كما تتطور العامية"[24]، والمتأمّل في مادة المعجم الوسيط وفي قوائم ألفاظ الحضارة والمصطلحات العلمية التي وضعتها المجامع والهيئات العلمية في العالم العربي يعرف إلى أي مدى يمكن للغة أن تتطوّر، فإذا عدنا بالذاكرة إلى كلمات مثل القطار أو البريد أو السيارة، فهل يخطر بأذهاننا أنّ القطار كان يطلق على مجموعة الإبل والبريد على الدابة التي تحمل الأخبار والسيارة على المجموعة السائرة، وهكذا في دبابة وقنبلة، وإعدام ومخابرة، وغيرها.

الهوامش:

1 – مهدي أسعد عرار، جدل اللفظ والمعنى دراسة في دلالة الكلمة العربية، ط1، عمان، دار وائل سنة2002، ص192.

2– عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، ط1997 تونس، ص82.

3– البغدادي، ذيل الفصيح، مطبعة السعادة، ص103.

4– ينظر عبد الفتاح سليم، اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه، ط2 القاهرة، مكتبة الآداب سنة2006، ص127.

5– يوهان فِك، العربية دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، تر: عبد الحليم النجار، ط2006 لقاهرة، الدار المصرية السعودية، ص113.

6– ابن دريد، جمهرة اللغة، ط1، دائرة المعارف العثمانية، 1345هـ، حيدر آباد، 433/3.

7– ابن فارس، الصّاحبي في فقه اللغة العربية، تحـ:عمر فاروق الطبّاع، ط1، بيروت، دار مكتبة المعارف سنة1993، ص71.

8– أحمد مختار عمر وفريق عمله، معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، ط1، القاهرة عالم الكتب، 2008، ص602.

9– المرجع نفسه، ص 14.

10– المرجع نفسه، ص 29.

11– المرجع نفسه، ص30.

12– المرجع نفسه، ص 14.

13– المرجع نفسه، ص 29.

14– المرجع نفسه، ص 30.

15– مهدي أسعد عرار، جدل اللفظ والمعنى دراسة في دلالة الكلمة العربية، ص208.

16– إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة1963، ص123.

17– المرجع نفسه، ص126. وينظر أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط5، عالم الكتب سنة1998، ص248.

18– أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص235.وينظر أحمد محمد قدّور، مبادئ اللسانيات، ط2 دمشق، دار الفكر، 1999، ص321.

19– بيير جيرو، علم الدلالة، تر: منذر عياشي، ط1992، دمشق، دار طلاس، ص68.

20- فندريس، اللغة، تعـ: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو مصرية ص246.
21- ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، ط1988، مكتبة الشباب، ص169.
22- فريد عوض حيدر، علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، ط2005، القاهرة، مكتبة الآداب ص69.
23- فندريس، اللغة، تعـ:عبد الحميد الدواخلي ومحمد، مكتبة الأنجلو مصرية. ص256.
24- أحمد مختار عمر، العربية الصحيحة، ط2، عالم الكتب، سنة 1998، ص21.

قائمة المصادر والمراجع:

1) إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ط2، مكتبة الأنجلو مصرية، سنة1963.

2) ابن دريد، جمهرة اللغة، ط1، دائرة المعارف العثمانية، 1345هـ، حيدر أباد.

3) ابن فارس، الصّاحبي في فقه اللغة العربية، تحـ: عمر فاروق الطبّاع، ط1، بيروت دار مكتبة المعارف سنة1993 .

4) أحمد مختار عمر، العربية الصحيحة، ط2، عالم الكتب، سنة 1998.

5) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط5، عالم الكتب، سنة 1998.

6) أحمد مختار عمر وفريق عمله، معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، ط1 القاهرة عالم الكتب، 2008.

7) البغدادي، ذيل الفصيح، مصر، مطبعة السعادة، ط1907.

8) بيير جيرو، علم الدلالة، تر: منذر عياشي، ط1992، دمشق، دار طلاس.

9) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، ط1988، مكتبة الشباب.

10) عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، ط1997، تونس، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله.

11) عبد الفتاح سليم، اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه، ط2 القاهرة، مكتبة الآداب سنة 2006.

12) فندريس، اللغة، تعـ: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو مصرية.

13) فريد عوض حيدر، علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، ط2005، القاهرة مكتبة الآداب.

14) أحمد محمد قدّور، مبادئ اللسانيات، ط2، دمشق، دار الفكر، 1999.

15) مهدي أسعد عرار، جدل اللفظ والمعنى دراسة في دلالة الكلمة العربية، ط1 عمان، دار وائل سنة 2002.

16) يوهان فِك، العربية دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، تر: عبد الحليم النجار، ط2006 القاهرة، الدار المصرية السعودية.